الأم ومكانتها
فى الأسرة والمجتمع

د / إبراهيم سعد قنديل

أستاذ الأدب العربى القديم المساعد

كلية التربية

جامعة المنصورة

مجلة رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة

العدد (١) – المجلد (١) – ٢٠٠٣م

"الأمُّ ومكانتها في الأسرةِ ، والمجتمعِ"

دكتور / إبراهيم سعد قنديل

أستاذ الأدب العربى القديم المساعد

بكلية التربية – جامعة المنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلاما على عباده الذين اصطفى ، وبعد .

فالأمومة عطاء ، ووفاء ، وفداء ، الأمومة نقاء ، وبهاء ، ورواء ، الأمومة جمال ، وجلال ، وسناء ، الأمومة حب ، وود ، وصفاء . الأمومة حنو، وسمو ، ورضاء . الأمومة دفء ، وخصب ، ونماء . الأمومة هبة من خالق الأرض والسماء ، الأمومة كلمة تتجسد فسها كل الآلاء ، الأمومة صانعة الأجيال ، ومحققة الآمال ، وصدقت يابن مصر ، ويا شاعر النيل ، يا حافظ حين قلت عن الأم ، والأمومة :

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها أعددتَ شعبًا طيِّبَ الأعْراقِ

إنها المدرسة الأعظم ، والأكمل ، والأنبل ، إنها المدرسة الأرقى ، والأتقى ، والأوفى ، إنها المدرسة التى لا تدانيها مدارس الدنيا تأديبا ، وتعليما ، وتهذيبا ، وعطفا ، وحنوا ، وسموا ، وطهرا ، ونبلا ، وكمالا ، وعظمة ، وعطاء ، ونقاء ، وصفاء .

إنها المربية الأولى والأخيرة ، إنها الدائمة العطاء عبر سنيها ، وسنى أبنائها وآبائها ، وإخوتها وأخواتها ، وطلابها ، وذويها ، إنها المعطاءة عبر الزمان مهما طالت الأيام ، وامتدت الأعمار .

إنهـــا التى حملت ، ورعت ، ووضعت ، وأرضعت ، وسهرت ، وبكت ، وتوجعت ، وقلقت ، وأرقت ، ونبا بها مرقدها ، وجفاها مضجعها ، وأرق معها ليلها ، وطال بها سهدها إذا ما مرض لها ولد ، أو توجع لها أب ، أو غاب عنها أخ ، أو فارقها حبيب.

إنهـــا الـــتى رفعت ، وترفع أكف الضراعة لخالقها سبحانه ليحفظ بنيها ، وذويها من شرور الدنيا، ومكائد الزمان .

إنهـــا أكـــثر خلق الله خوفا ، وهلعا ، وقلقا ، وأرقا ، وتوجسا على أبنائها مهمـــا بلغـــت أعمارهم ، ومهما تجاوزا سنى الخوف عليهم وصاروا رجالا ، وحازوا من القوة ، والمنعة ، والغنى ، والجاه ما حازوا .

إنهم يظلون فى أعين الأمهات صغارا فى حاجة إلى عطفهن ، وحنانهن ، ودعائهن ، إن الأم معنى من أسمى المعانى ، وأجلها ، ولفظة من أرق الألفاظ ، وأحلاها ، ويكفيها شرفا أن أوصى بها الخالق سبحانه خيرا فى قرآنه ، فقال جل فى علاه :

" ووصَّينا الإنسانَ بوالديه حملتْهُ أمُّهُ وهنًا على وهنٍ وفصالُه فى عامين أنِ اشْكُرْ لى ولوالديك إلىَّ المصيرُ " سورة لقمان : آية ١٤ .

وقال جل فى علاه كذلك : " وقَضَى ربُّك ألاَّ تعبدُوا إلاَّ إيَّاه وبالوالدينْ إحسانا ، إمَّا يبلُغنَّ عندك الكِبَرَ أحدُهما أوْ كلاهما فلا تقُلْ لهما أُفٍ ولا تنْهرهُما وقلْ لهما قولا كريما ، واخْفِضْ لهما جناحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ وقلْ ربِّ ارحَمْهُما كما ربَّيانى صَغيرا " سورة الإسراء ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

ورسـول الله – صلى الله عليه وسلم – خير من أعطى الأم حقها ، وخير مـن أوصـى بها، فها هو ذا – صلوات الله وسلامه عليه – يقول للرجل الذى سأله" من أحق الناس بحسن صحبتى يارسول الله ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من؟ ، قال : أبوك .

والقـرآن الكريم يجسد خوف الأم ، وهلعها على ولدها أعظم تجسيد كما جاء فى قصة أم موسى عليه السلام:

" وأوْحَيْنا إلى أمِّ موسى أنْ أرضِعيه ، فإذا خِفْتِ عليه فألقيه فى اليمِّ ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادّوه إليكِ وجاعلوه مِن المرسلين . فالتقطَهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهمْ عدوًا وحَزَنا إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودهما كانوا خاطِئين ، وقالتِ امرأتُ فرعونَ قرّةُ عينٍ لى ولكَ لا تقْتلُوه عسَى أنْ ينفعنا أو نتّخِذه ولدًا وهمْ لا يشْعُرون ، وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسَى فارغًا إن كادتْ لتُبْدِى به لولا أنْ ربطْنا على قلْبها لتكُونَ مِن المؤْمنين ، وقالتْ لأخته قُصِّيه فبصُرتْ به عنْ جُنُبٍ وهُمْ لا يشْعُرون" سورة القصص،الآيات٧-١١.

وتراثنا العربى الإسلامى الإنسانى حافل بأمثلة باهرة ، ونماذج مضيئة من النسـاء كـن ، ولا يزلن مثالا يحتذى ، ونموذجا يتأثر ، فها هى ذى الخنساء " تماضـر بنـت عمـرو بن الشريد " الشاعرة المخضرمة التى ملأت الدنيا فى جاهليتها بكاء ، وعويلا على أخويها "معاوية" ، و"صخر" ، بعد موتهما ، وإن كان بكاؤهـا علـى " صخر " لا يدانيه بكاء فى الشعر العربى كله فقد كان الأحنى عليها ، والأبر بها ولنستمع إلى نموذج من نماذج بكائها على هذا الأخ الحانى، العطوف.

أعيـــنىَّ جُـــودا ، ولا تجمُـــدا ألا تبكـــيان لصـــخرِ الـــنَّدى
ألا تبكـــيان الجـــرئ الجمـــيـ ـــــل ، ألا تبكـــيان الفـــتى السَّـــيِّدا

ولننظر إلى هذه البكاءة ، الشكاءة بعد إسلامها ، وبعد أن أكرمها الله بدين الإسلام فعرفت فيه قيمة الشهادة ، ولمست منه عظمة الموت فى سبيل الله .

فهـــا هـــم أولاء أبـــناؤها الأربعة يلقون الشهادة فى سبيل الله فى موقعة القادســـية التى قادها "سعد بن أبى وقاص" ، وتتلقى "الخنساء" خبر استشهاد بنيها ، فماذا كان منها ؟

لقد استقبلت الخبر هاشة ، باشة تقول فى فرح ، وبهجة وسرور : " الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيله ، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته "

إنهـــا مـــثال لكل أم معطاءة ، وهل هناك عطاء يعدل عطاءها ذاك ، كلا والله .

وها هى ذى "أسماء بنت أبى بكر" – رضى الله عنها وأرضاها – تلك التى كانت فى صباها مثلا يحتذى كذلك بما بذلت من جهد ، وعرق ، وصبر ، وشدة تحمـــل حيـــن شـــقت نطاقها نصفين انتطقت بواحد ، وحملت فى الآخر طعاما وشـــرابا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبيها حين كانا فى غار ثور فى طـــريق هجرتهما إلى المدينة المنورة ، وقد يبدو مثل هذا التجلد ، وذلك التحمل مقدورا عليه فى أيامنا ، وفى بلادنا ، أما فى صحراء مكة ، وبين جبالها ، وفى أوقـــات هجـــيرها ، والمتحملة ذلك كله فتاة فى صباها ، عاشت فى لين أبيها ، وغـــناه لم تذق شمس الهجير فى مكة ، ولكنها عند لحظة الاختبار كانت جديرة بأن تكون عند ظن الله بها ، وبمثيلاتها من بنات صحابة رسول الله ﷺ .

لـــم يقف حد التحمل بأسماء" عند هذا الحد ، بل تعداه إلى ما هو أعظم ، وأكـــبر ، وأجـــل، لقد حاول " أبو جهل " عليه لعنة الله أن يعرف من " أسماء " مكان أبيها ، وصاحبه فلم يظفر منها بشئ ، فما كان من هذا الجاهل ، الجهول إلا أن رفـــع يـــده الغليظة وهوى بها على وجهها الكريم بلطمة عنيفة أسقطت قـــرطها ، وتحملت " أسماء " العظيمة أذى هذه اللطمة الغاشمة كى لا يرى عدو الله فى عينها دمعة حزن ، أو ضعف ، أو ندم .

إن " أسماء " الفتاة قد ضربت لكل فتاة مثلا يحتذى ، ونموذجا يتأثر بمثل هذا الموقف العظيم .

وإن كانـــت " أســـماء " العظـــيمة قد ضربت مثل هذه الأمثلة فى صباها وشـــبابها ، فقـــد ضربت فى شيخوختها – كذلك – من الأمثلة ما يعد صفحات مضيئة من التاريخ لكل من يريد أن يقرأ تاريخ العظيمات من نساء المسلمين .

لقد حدثها ولدها وهو فى مواجهة أعداء حزبه ، وبثها مكنون صدره قائلا: إننى أخشى أن يمثل بى الأعداء بعد قتلى ، فقالت : يا بنى إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها .

وكانت بهذه القول السديد تدفع ولدها دفعا إلى الجهاد فى سبيل ما يعتقده ، وما يؤمن به.

أين نساؤنا من هؤلاء المضحيات الباذلات فلذات أكبادهن فى سبيل الدين ، والعرض ، والوطن؟.

ومادمنا قد تذكرنا أسماء"، فحرى بنا أن نتذكر أختها أم المؤمنين " عائشة" – رضى الله عنها – تلك التى تزوجها رسول الله ﷺ وهى ابنة الثانية عشرة .

وعلى الرغم من حداثة سنها ، إلا أنها كانت عالمة بأنساب العرب ، عالمة بأحاديث رسول الله ﷺ وراوية لها ، عالمة إلى جانب ذلك كله بأصول التربية، وأصول العشرة ، وأصول الحياة.

فى المرض الأخير لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حدث أن نادى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "بلالاً" وقال : يا بلال : مر "أبا بكر" فليؤم الناس بالصلاة ، قال ذلك أمام "عائشة ابنة أبى بكر" ، و"حفصة ابنة عمر" وكلتاهما زوجتاه ﷺ وأمام غيرهما من المسلمين.

وخشيت " عائشة " أن تظن "حفصة" بها الظنون ، وأن لها يدا فى هذا الأمر فقد كان رسول الله ﷺ يمرض فى حجرة " عائشة " – رضى الله عنها ، فقالت مبرئة ساحتها ، ومشهدة على ذلك : يا رسول الله : إن "أبا بكر" رجل أسيف ، متى يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت "عمر".

فأعاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – على بلال ما قال ، يا "بلال" مر " "أبا بكر " فليؤم الناس بالصلاة ، وأعادت "عائشة" ما قالت مرة ثانية ، فكرر الرسول – صلى الله عليه وسلم – على "بلال" ما قال ، وأعادت "عائشة" ما قالت مرة ثالثة ، فغضب ﷺ وقال : والله إنكن أنتن صواحب "يوسف"، أى اللائى يتدخلن فيما لا يعنيهن.

إن تدخل "عائشة" – رضى الله عنها – لم يكن اعتراضا على رأى رآه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت من خلال ذلك تؤكد لضرتها أنها بريئة من اختيار أبيها لهذه المهمة دون غيره من المسلمين .

هكذا كانت " عائشة " – رضى الله عنها – فى سداد رأيها ، وعظم تفكيرها ، وحسن معاملة غيرها من زوجات رسول الله ، وإنه لدرس من دروس

التربـــية ما أحوجنا إليه فى أيامنا وما أحرى نساءنا ، وأجدرهن أن يتخذن من عائشة ، وغيرها مثلا ، وقدوة ونموذجا .

إن المرأة قد تكون أما ، أو بنتا ، أو أختا ، أو زوجا ، وتستطيع من خلال أى نمط من هذه الأنماط أن تكون عظيمة بما تقدم ، بل إننا كثيرا ما نرى البنت وقـــد أضحت أما لأبويها فى كبرهما ، تحنو عليهما وتهتم بأمرهما وكأنها أم لا بنت .

وكذلـــك تكـــون الأخـــت أما لأخوتها وأخواتها بعد فقد الآباء ، والأمهات وكذلك الزوجة فكثيرا ما تكون بمثابة الأم لزوجها بحنوها ، وعطفها ، وحبها .

فالمرأة أم فى المقام الأول ، وإن أعظم ما يلفت انتباهنا فى رثاء الأزواج من الشعراء لزوجاتهم جانب الأمومة فيهن فهم يبكون فيهن هذا المعنى أكثر من غيره ، وها هو ذا " جرير " الشاعر الأموى يرثى زوجه ، فيقول :

لـــوْلا الحـــياءُ لها جنى استِعبارُ ... ولـــزُرْتُ قـــبرَكِ والحبيـــبُ يـــزارُ
ولقـــدْ نظـــرْتُ ومـــا تمتّعُ نظرةٌ ... فـــى اللّحْـــدِ حيْـــثُ تمكّـــنَ المحْفـــارُ
فجـــزاكِ ربُّكِ فى عشيرِكِ نظْرةً ... وســـقَى صـــداكِ مُجلْجـــلٌ مـــدْرارُ
ولّهْـــتِ قلْـــبِى إذْ علتْـــنِى كبْرةٌ ... وذوُوا الـــتّمائِمِ مـــنْ بنـــيكِ صـــغارُ

وها هو ذا محمد بن عبد الملك الزيات يرثى زوجه فيقول :

ألا مَـــنْ رأى الطّفْلَ المُفارقَ أُمَّهُ ... بعَـــيْدِ الكَـــرَى عيْـــناه تبْـــتدِرانِ
رأى كُـــلَّ أمٍ وابْـــنَها غـــيرَ أُمِّهِ ... ببيـــتانِ تحْـــتَ اللّـــيْلِ يَنْتجِـــيانِ
ويَـــاتَ وحِـــيدًا فِى الفِراشِ تُجِنُّهُ ... بَلابِـــلُ قلْـــبٍ دائِـــمِ الخفَقَـــانِ

ثم يناجي الدهر الذى قضى عليه وعلى طفله بذلك فيقول :

فَهَبْنِي عزمْتُ الصَّبْرَ عنها لأنني ... جَلِيدٌ فمَنْ بالصَّبْرِ لابْنِ ثمانِ

وها هو ذا محمود سامى البارودى يقول فى رثاء زوجه كذلك :

يا دهْرُ فيمَ فجعْتَنى بجليلةٍ ... كانتْ خُلاصةَ عُدَّتى وعَتادى

إنْ لَمْ تكُنْ تَرْحمْ ضَنانةَ لُبْعدِها ... أفلا رحمْتَ مِنَ الأسَى أوْلادِي

وإذا كان هؤلاء قد بكوا زوجاتهم وخصوا فى بكائهم لهن معنى الأمومة ، فهناك من بكوا أمهاتهم ، وها هو ذا ابن الرومى يقول فى رثاء أمه :

أقُولُ وقدْ قالوا أتبكِي كفاقِدٍ ... رَضاعًا وأيْنَ الكَهْلُ منْ راضِعِ الحلمْ

هِيَ الأمُّ باللنَّاسِ جُرِّعْتُ ثُكْلَها ... ومَنْ يَبْكِ أمًّا لَمْ تَذُمَّ قطُّ لا يُذمّ

وإنِّيَ لَمْ إيتَمْ صَغيرًا وإنَّني ... يَتِمْتُ كبيرًا أسْوأُ اليُتْمِ فى اليُتَمْ

ويبكى الشَّريف الرَّضىُّ أمه بكاء مرا ، ومن ذلك قوله :

أبْكِيكِ لَوْ نَفَعَ الغَلِيلُ بُكائى ... وأقُولُ لَوْ ذَهَبَ المَقالُ بدائى

وأعُوذُ بالصَّبْرِ الجَمِيلِ تَعَزِّيًا ... لَوْ كَانَ بالصَّبْرِ الجَمِيلِ عَزَائى

مَا كُنْتُ أذْخَرُ فِى فِداكِ رَغِيبَةً ... لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتٌ بِفِدَاءِ

فَارَقْتُ فِيكِ تَمَاثُلِى وَتَجَمُّلِى ... وَنَسِيتُ فِيكِ تَعَزُّزِى وَإبَائى

وَصَنَعْتَ مَا تَأْلَمُ الوُقارُ صَنِيعَهُ ... مِمَّا عَرانِى مِنْ جَوَى البُرَحاءِ

كَمْ زَفْرَةٍ ضَعُفَتْ فَصارَتْ أنَّةً ... تَمَّمْتُهَا بِتَنَفُّسِ الصُّعَداءِ

قَدْ كُنْتُ آمُلُ أنْ أكُونَ لَكِ الْفِدَى ... مِمَّا أَلَمَّ فَكُنْتِ أنْتِ فِدائِى

وشـــئ طبعى أن يرثى الأزواج زوجاتهم ، وأن يرثى الأبناء أمهاتهم لكن الشـــئ العجيـــب أن نرى من ينشغل بأمه وهو يستشعر دنو أجله ، وقرب يومه خوفا عليها من نيران الحزن عليه .

وهـــا هو ذا " أبُو فِرَاس الحَمْدَانى " وقد وقع أسيرا فى أيدى الروم بعد أن أصابه نصل فى فخذه – ها هو ذا – يكتب إلى أمه وهو فى أرض الروم وهى فـــى " منـــبج " إحدى قرى " حلب " ببلاد الشام ، يكتب إليها شادا من أزرها ، موصـــيا إياهـــا بالصبر الجميل ، مذكرا إياها بعظميات النساء الصابرات من أمـــثالٌ أســـماء بنت أبى بكرٍ" ، وَحفصة بنت عمرٍ" ، عمَّة رسول الله ﷺ وأخت "حمزة" شهيد أحد ، يقولٌ أبُو فِرَاس" فى ذلك :

فَـــيا حسْرَتى مِنْ لى بِخل مُوافِقٍ ... أقُـــولُ بِشَـــجْوى تَـــارَةً ويقُـــولُ
وإنّ وَرَاءَ السِّـــتْرِ أمَّـــا بُكَاؤُهَـــا ... علَـــىَّ وَإنْ طَـــالَ الـــزَّمَانُ طَوِيـــلُ
فَـــيا أُمَّـــتَا لا تَعْدَمِى الصَّبْرَ إنَّهُ ... إلَـــى الْخَـــيْرِ وَالـــنُّجْحِ الْقَرِيـــبِ رَسُولُ
وَيَـــا أُمَّـــتَا لا تُحْبِطِى الأجْرَ إنَّهُ ... علَـــى قَـــدْرِ الصَّـــبْرِ الجَمِـــيلِ جَـــزِيلُ
وَيَـــا أُمَّـــتَا صَـــبْرًا فكُـــلُّ مُلِمَّةٍ ... تَجَلِّـــى علَـــى عِلاَّتِهَـــا وَتَـــزُولُ
أمَـــا لَكِ فِى ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ أُسْوَةٌ ... بِمَكَّـــةَ والْحَـــرْبُ الْعَـــوَانُ تَجُـــولُ
أرَادَ ابْـــنُهَا أخْذَ الأمَانِ فَلَمْ تُجِبْ ... وَتَعْلَـــمُ عِلْمًـــا إنَّـــهُ لَقَتِـــيلُ
تَأسَّـــىْ كَفَـــاكِ اللهُ مَـــا تَحْذَرِينَهُ ... لَقَـــدْ غَـــالَ هَـــذَا الـــنَّاسَ قَـــبْلَكِ غُولُ
وَكُونِـــى كَمَـــا كَانَتْ بِأُحْدٍ صَفِيَّةٌ ... وَلَـــمْ يُشْـــفِ إلاَّ بِالْـــبُكَاءِ غَلِـــيلُ
وَلَوْ رَدَّ يومًا حَمْزَةَ الخَبْرِ حُزْنَهَا ... إذَا مَـــا عَلَـــتْهَا رَنَّـــةٌ وَعَوِيـــلُ

وإذا كانٌ أبُو فِرَاس الحَمْدَانى" فى القرن الرابع الهجرى قد شغله حزن أمه علـــيه ، وأهمـــه قلـــة صبرها على غيابه ، فإن " هاشم الرفاعى " فى العصر الحديـــث حيـــن استشـــعر دنو أجله ، كتب إلى أبيه قصيدة طويلة يوصيه فيها

بالصـــبر ، ويوصـــى أمه كذلك ، وأسمى هذه القصيدة " رسالة فى ليلة التنفيذ " وفيها يقول متحدثا إلى أبيه ، وموصيا أمه :

وَإذا سَمِعْتَ نَشِيجَ أُمِّيَ فِى الدُّجَى ... تَـبْكِى شَـبَابًا ضَـاعَ فِـى الـرَّيْعَانِ
وَتَكَـتَّمُ الحَسَـرَاتِ فِـى أَعْمَاقِهَا ... أَلمَّـا تُوَارِيـــهِ عَـــنِ الجِـــيرَانِ
فَاطْلُـبْ إِلَـيْهَا الصَّفْحَ عَنِّىَ إِنَّنِى ... لا أَرْتَجِـى مِـنْهَا سِـوَى الْغُفْـرَانِ
مَـازَالَ فِى سَمْعِى رَنِينُ حَدِيثِهَا ... وَمَقَالِهَـا فِـى رَحْمَـةٍ وَحَـنَانِ
أَبَـتِ إِنِّـى قَـدْ غَـدَوْتُ عَلِيلَةً ... لَـمْ يَـبْقَ لِـى جَلَـدٌ عَلَـى الْأَحْـزَانِ
فَـأَذِقْ فُؤَادِىَ فَرْحَةً بِالْبَحْثِ عَنْ ... بِنْـتِ الحَـلالِ وَدَعْـكَ مِـنْ عِصْيَانِى
كَانَـتْ لَهَـا أُمْنِـيَّةً رَيَّانَـةً ... يَـا حُسْـنَ آمَـالٍ لَهَـا وَأَمَـانِى
غَزَلَتْ خُيُوطَ السَّعْدَ مُخْضَلَّا وَلَمْ ... يَكُـنِ انْـتِقَاضُ الْغَـزْلِ فِـى الْحُسْبَانِ
وَالآنَ لا أَدْرِى بِـأَىِّ جَوَانِـحِ ... سَـتَبِيتُ بَعْـدِى أَمُّ بِـأَىِّ جَـنَانِ
وَإِلَـى لِقَـاءٍ تَحْـتَ ظِلِّ عَدَالَةٍ ... قُدْسِـيَّةِ الْأَحْكَـامِ وَالْمِـيزَانِ

ولا أقول لكم أيها الحضور الكرام إلا ما قال "هاشم" فى ختام قصيدته تلك لأبيه وأمه.

وَإِلَى لِقَاءٍ تَحْتَ ظِلِّ عَدَالَةٍ ... قُدْسِيَّةِ الْأَحْكَامِ وَالْمِيزَانِ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...